

١١ في مخاطبة الغني

يا خادم الفنية وأمير العادة وضيف النحله ، ونزل الرحلة (؟) ما أقتعك درئها
حتى عدوت عليها ، ولم ترض بما اقتصر عليه الذيب منها ، حتى دبت جلدتها ،
وخرطت عظمها ، واعزلت وبرها ، ورأيت أكبر الحظ لك ان يكون جوفك
مقبرة لميت الحيوان وحظيرة لأسار أحياها ، والخدت منها أرجلًا تحملك ، وأيدياً
تنبع عنك ، وقومة على سرفك ، وتبتعد فضائلها فاستخدمتها وأغفلت فضيلة نفسك ،
وما ترتفع به عن جنسك ؟ وجعلت ما اجتمع لك من هذا نعمة تقضي بها التعظيم
وتسدعي معها التفضيل ، وحدثت نفسك بمقامها عليك ، وبمقامها لدبك ، وإنما هي
مثل أغصان أميلت من أشجارها وجمعت رؤوسها ليتطل بها من تحتها فإذا زال
رباطها رجع كل غصن منها إلى شجرته أو كراكب بحر في هدوء بحاته وشمه
ولده ، أماه سكونه عن حسن التحرز لاحتياجه ، وترفع على من على المسير في
البر بما يلحقه من كلال السفر وتعب المسير ، حتى إذا عصفت به الريح كثُر غرقاء
وغيرت صورة الترفة والأمن فيه .

يا ويحك ليس عليك استهارك بما حصل لك مما بني عليه الزمان من قصر (مدة)
المتعة حتى نهالكت في طلب مخالفه الموتى ، ولم يثنك عنه سوء عهده لمن كان
معه أنه لا يصحبك مما وهب له سعيك ومرورتك ، وأنقضت فيه ركبك ، واحتلت
له أنواع المكاره ، الا ما تقدمه من امساك أحوال المخلين وهداية المضللين وكمف
عادية المسلمين وما كان سوى ذلك فيقيم في طعنك وينصدى لمن هو أقوى من
يدك حتى يورده موردهك ان تتجاوز ما كف جوعتك ، وستر عورتك ، مذلة لك
وقتنة لغيرك فلا تفرق فيها أرذل نفسك وحط منها وعودها مالا يطرد لها ول يكن
خوفك من ربك أزيد من خوفك من شأنة المخلوقين ، والتكشف عند الملائكة

(١) مقتبس من كتاب الصحف اليونانية المخطوط مـ المعاشرة على الخطوط النادر الذي
تكلمنا عنه في أول هذا الجزء .



المقربين أعظم عليك من التكشـف عند المذنبـين الداـثرين واعلم ان كل يوم يمضي لك فـانه مرحلة من طريقـك الى معادـك فلا يـشغلك أملك عن أجـلك ولا ما تـخلـله عـما تـقدم عليه فـان وفور الجـدة بـنقصـات الفـضـيلة غـبن ، والـشـرف بما لا يـوثـق بـيـقامـه شـفـوة ، ان أـفـضل مـالـك ما كـفـ الفـاقـة ، وقادـ الى المـوهـبة التـامـة ، وأـعـانـك على فـرض الشـرـيعـة ، وليـسـ يـنـقصـ بها في الـأـرـضـ شيءـ إلا زـادـه ذلكـ في مـلـكـوتـ السـيـاـوـاتـ اـضـافـةـ .

يا أـمـها المـفـتوـنـ بـالـهـ ، وـالـمـؤـثرـ لـهـ عـلـىـ دـبـنهـ ، ما أـنـصـفـكـ مـالـكـ قدـ سـاقـ اليـكـ الـجـوـرـةـ وـرـمـاكـ بـالـمـلـسـطـينـ ، وـخـذـلـكـ فـيـ شـدـائـكـ ، وـتـخـلـفـ عـنـكـ فـيـ ظـعـنـكـ ، وـصـارـ مـفـسـدـةـ لـمـنـ خـلـفـتـهـ لـهـ إـنـ أـظـهـرـ نـصـرـتـهـ ^(١) شـجـبـيـ قـلـوبـ الـخـتـلـينـ ، وـبـعـثـ عـلـيـهـ عـدـاـوـةـ الـمـكـالـبـينـ ، وـصـالـ بـهـ عـلـىـ الـتـجـمـلـينـ وـأـسـاءـ بـهـ جـوـارـ الصـالـحـينـ ، وـاحـتـاجـ مـعـهـ إـلـىـ مـعـاـشـرـةـ الـشـرـارـ وـبـحـانـةـ الـخـيـارـ ^(٢) وـإـنـ أـخـفـاهـ اـضـطـرـ إـلـىـ سـتـرـهـ بـالـحـنـثـ فـيـ الـيـمـينـ وـفـرـطـ الـتـبـارـيـعـ ^(٣) وـشـكـوـيـ رـبـهـ فـيـ الـمـوـضـعـ الـذـيـ أـوجـبـ عـلـيـهـ بـهـ شـكـرـهـ وـمـنـعـ الـمـسـخـقـينـ مـنـهـ بـقـيـةـ عـلـيـهـ ، يـاـ عـاشـقـ الـصـورـةـ الـمـسـتـرـفـةـ لـهـ إـنـاـ هـيـ زـهـرـةـ بـدـتـ شـفـقـكـ ظـاهـرـهـاـ فـغـرـكـ مـنـكـ سـكـرـ الشـهـوـةـ ، تـمـاـصـكـ قـلـيلـاـ فـيـ باـطـنـهاـ بـرـوـكـ وـشـفـاؤـكـ مـنـ وـصـبـكـ إـنـكـ اـنـ صـبـرـتـ عـنـهاـ رـأـبـتـ تـغـيرـهاـ فـاسـخـالـتـ وـأـنـ مـقـيمـ لـمـ تـسـجـلـ وـاـنـ اـنـفـيـتـ إـلـيـهاـ سـبـقـتهاـ بـالـتـغـيرـ وـتـفـقـتـ عـنـهاـ بـسـوـهـ التـغـيرـ .

يـاـ مـنـ تـأـنـقـ فـيـ طـعـامـهـ وـلـمـ يـقـفـ عـلـىـ مـقـدـارـ غـناـهـ إـنـ مـوـافـقـكـ مـنـهـ قـلـيلـ وـهـ يـتـصـدـىـ لـكـ تـصـدـيـ الـمـدـوـ الـمـلـقـ الـذـيـ يـخـادـعـكـ عـنـ نـفـسـهـ حـتـىـ تـزـدـرـدـهـ ، فـاـذـاـ جـاـوـزـ طـوـاـتـكـ اـعـجـزـ قـدـرـتـكـ وـسـاءـ تـحـكـمـهـ عـلـيـكـ فـانـ اـجـمـعـ عـلـيـكـ فـيـ الـإـثـمـ وـالـفـرـرـ عـظـمـ خـسـرـانـكـ بـهـ .
يـاـ مـنـ جـمـعـ إـخـوانـهـ عـلـىـ شـرـابـ طـابـتـ بـهـ اـنـقـسـمـ ، وـاـنـفـقـ لـهـ مـيـلـهـ وـاـخـلاـصـهـ ،
اـنـكـ سـاـورـتـ آـفـةـ مـنـ الـآـفـاتـ الـمـوـبـقـةـ ، اـدـخـلـتـمـوـهـ بـيـنـكـمـ وـبـيـنـ عـقـولـكـ فـقـهـقـرـتـ بـكـمـ
مـنـ أـعـلـاـ الـأـسـنـانـ إـلـىـ اـنـقـصـهـ بـنـقـلـكـ مـنـ الشـيـخـوـخـةـ إـلـىـ الـأـكـتـهـاـ ، وـمـنـ الـأـكـتـهـاـ
إـلـىـ الـشـبـابـ ، وـمـنـ الـشـبـابـ إـلـىـ الصـبـيـ فـيـ يـوـمـ وـاحـدـ [ـاـنـ مـوـدـاتـكـ]ـ مـدـخـوـلـةـ ،
وـتـفـوـسـكـ مـرـذـوـلـةـ ، وـاـنـتـ إـلـىـ الـأـرـتـكـاسـ اـقـرـبـ مـنـكـ إـلـىـ الـأـيـنـاسـ .

(١) قـرـةـ . (٢) الـأـنـيـارـ . (٣) الـخـضـاـلـ فـيـ الـتـبـارـيـعـ الـمـبـادـيـنـ .

يا من يرفل في اثوابه ويروقه مارق^(١) منها وحسن صبغه وانتظمت نقوشه قد زُبنت البهائم والأطيار بأحسن مما شففك منها استلي صباغ ملابسك ولم تتكلف به كلفك ولا عانت له ما عانيت من ياع دينك بدنياك^(٢) وإنما الفضل في حسن الصبغة^(٣) للصباug وليس المستعمل ، ويحلك تدبر ما غالبت به واستدعيت حد الحاسد فيه من الآلات والأمتعة هل هي إلا اوصاب ارتهن الناس بها ، وانما مقامها عكازة المكافوف ومحفة المنقرس ، إلا ان طبيعة هذا العالم المرذول حست ظواهرها وكثرت حلبيها لستر بها زمانة المترفين ، ويدهل ذوق الفاقة عما هم فيه ، متعمدين فيه بما يروقهم ، أبن لي هل يتعمل عنك الأعباء فضة صرتك او ترصيع محفتك ، او يزيد في قطع مسافتك ما فيه من كثرة الخليبة او بدفع عنك البرد اصباح ثيابك كل هذه اشياء حست لفافة وقعت فصبرتها من اكبر ما باهيت به ان فرط الجدة مثل الشحم الذي حدث عند عجز طبيعة البدن عن حسن المضم فصار فتنة للمهزولين يتثنونه على اضعافه قواهم وهم ثقله عليهم ولو لم يكن في حسن الملبس وفراحة المركب الا اعتقاد صاحبها ان ظاهره عند اكثـر الناس فضيلة^(٤) فيه لكان منه ما يضره .

يا حسن الهيئة خف الله من كسوف بالمخلين من ابناء النعمة وانكـلـاد قلوبهم ، واعلم انك فاصتـهم جـلب الدـنيـا شـرـة قـسـمة ، ولو لاك ما مستعمل الناس اـكـثر الرـذـائـل لأنـه لا يـصلـ الى زـيـكـ من ضـعـفـتـ حالـه إلاـ بـتوـغـلـ رـذـائـلـ مجـعـفـةـ بدـيـنهـ وزـنـهـ ، ولو لاك سقطـتـ كـلـفـتهـ وظـهـرـتـ فـضـيـلـتهـ .

يا فاشـيـ النـعـمـةـ ثـبـتـ فيـ اـسـرـكـ وـلاـ تـقـطـعـ ضـرـيـةـ إـنـ بـارـبـكـ أـحـبـكـ بـاـ اـفـضـىـ بـهـ بـلـكـ ، وـاحـذـرـ انـ تكونـ ذـلـكـ عـنـ بـغـضـةـ لـكـ وـاـخـرـافـ عـنـكـ ، وـاعـلـمـ انـ محـبـتـكـ فيـ النـعـمـةـ لـلـفـقـراءـ تـدـلـ عـلـىـ مـحبـةـ مـنـ اـنـتـ عـلـىـ يـسـارـكـ فـقـيرـ الـيـهـ ، يـاـ اـيـهـاـ المـفـرـورـ بـاـ خـوـلـ تـجـرـدـ عـنـ جـسـمـكـ طـوـعاـ قـبـلـ انـ تـجـرـدـ مـنـ كـرـهـاـ ، فـاـنـ الطـوـعـ اـنـابـةـ وـالـكـرـهـ عـقـوـبـةـ ، وـلـيـسـ يـحـمـلـ عـنـكـ شـيـئـاـ مـنـ ثـقـلـكـ وـالـهـ عـزـ وـجـلـ مـاـ عـقـدـتـ عـلـيـهـ السـرـائـرـ وـثـبـتـ فيـ الـفـهـارـ .

(١) دـينـيـاـكـ . (٢) الـسـنـةـ السـاـمـ . (٣) خـ . ضـيـةـ بـسـتـيـاـ مـنـ ظـهـورـ ضـيـةـ بـهـ .